مذهب النشوء واخوان الصفا

نشوء الكائنات — الاحياء الدنيا أولا — التخصص في الاعضاء دليل الرقي — الوظيفة توجد العضو — دوافع البقاء ووسائله — الغريزة الجنسية وحفظ النوع — الحواس وحفظ الذات — الجمال مسخر لحفظ النوع — البقاء للأصلح — تنازع البقاء وسيلة للرقي — التعاون وسيلة للرقي

لم يكن داروين أول من اهتدى إلى مذهب النشوء وتوابعه، ولم ينفرد وحده بالتنبه اليه. فاليونان وغيرهم من الأمم القديمة قد نحوا اليه ونحوه بقدر ما كانت تساعدهم معارفهم ووسائلهم العلمية. وتنبه اليه العرب، فطبقه ابن خلدون في مقدمته على نشوء العمران وانحلاله. وشعر المعري بما يدعونه تنازع البقاء فحفل بالاشارة اليه شعره. واخيرا اخوان الصفا فجاءونا بما يجعل هذا الفصل خليقا بهذا العنوان

جاءنا اخوان الصفا بان هذه الكائنات المختلفة من معادن ونبات وحيوان هي سلسلة متماسكة الحلقات شديدة الاندغام بعضها في بعض، وانه ليس ثمة حدود فاصلة أو مراحل منقطعة بين الحلقة وتاليتها. المعادن متصل اولها بالتراب وآخرها بالنبات. والنبات ايضا متصل آخره بالحيوان، والحيوان متصل آخره بالانسان، والانسان متصل آخره بالملائكة» (١) وهم في هذا على اشد ما يكون من الاقتناع. ورسائلهم حافلة بهذه الفكرة يبدئون فيها ويعيدون كان الاشارة المفردة عندهم لا تبلهم ما يصبون اليه من اقناع

كذلك يقول اخوان الصفا — وقولهم حق —: «ان الحيوانات الناقصة الخلقة متقدمة الوجود على التامة الخلقة بالزمان في بدء الخليقة، وذلك انها تكون في زمان قصير. والتي هي التامة الخلقة تكون في زمان طويل لأسباب وعلل يطول شرحها» (٢) هنا لا يختلف اخوان الصفا عن نشوئي هذا العصر القائلين بان الحياة قد بدأت بأحط أنواع الأحياء وابسطها تركيبا. والقائلين ايضا بان الطبيعة تصرف على الحيوانات الراقية جهداً فوق ما تصرفه على الحيوانات الدنيا، ولذا فأنسال هذه كثيرة وأنسال تلك قليلة.

ويشير اخوان الصفا الى ان التخصص في الأعضاء دليل على الرقي في سلم النشوء، ويطبقون ذلك على النبات والحيوان فيقولون: «واما النخل فهو آخر مرتبته النباتية مما يلي الحيوانية، لأن بعض احواله مباين لأحوال النبات. ذلك ان القوة الفاعلة فيه منفصلة عن القوة المنفعلة، والدليل على ذلك ان اشخاص الفحولة منه مباينة لأشخاص الاناث. ولأشخاص فحوله لقاح في اناثها كما يكون ذلك للحيوان»

ثم يقولون: «اعلم أن أدون الحيوان وانقصه هو الذي ليس له الا حاسة واحدة وهو الحلزون... وهكذا اكثر الديدان التي تكون في الطين في قعر البحر وعمق الانهار ليس لها سمع ولا بصر ولا ذوق ولا شم»

واذ يقر اخوان الصفا هذه الحقائق يتقدمون خطوة اخرى جريئة ويساهمون داروين في ان الانتخاب الطبيعي يفني كل عضو لا فائدة للجسم منه. ويوجد الأعضاء التي تفيد الجسم في تنازع البقاء. «لأن الحكمة الالهية لم تعط الحيوان عضواً لا يحتاج اليه في جر المنفعة او دفع المضرة، لانه لو أعطاها ما لا تحتاج اليه لكان وبالا عليها في حفظها وبقائها» (١)

ويزيدون هذه الفكرة جلاء فيأتونها من ناحية ان الوظيفة توجد العضو فيقولون: «واما السباع الآكلة اللحمان فان خلقتها وطباعها وتركيب بعض أعضائها الظاهرة والباطنة وامزجتها وشهواتها مخالفة لما عليها الحيوانات الآكلة العشب. وذلك ان الباري لما خلقها وجعل غذاءها من اللحمان جعل لها انيابا صلابا ومخالب مقوسة، قوية وازنادا أيدة متينة، ووثبات خفيفة تستعين بها على قبض الحيوانات»

بعد هذا يتقدم اخوان الصفا بجرأة ويقررون: «ان شهوة البقاء وكراهية الفناء هما أصل وقانون لجميع شهوات النفوس المركوزة في جبلتها، وان تلك الشهوات هي اصول وقوانين لجميع اخلاقها وسجاياها» وهكذا يبين اخوان الصفا في هذه الجملة الفذة ان جميع الغرائز الحيوانية هي اداة التنازع على البقاء الذي يظهر في شطريه: التنازع على حفظ الذات، والتنازع على حفظ النوع: ليس هذا فقط بل هم يرجعون بالاخلاق والسجايا الانسانية الى هذين الحافزين الأكبرين. وهي في الحقيقة نظرة في الغاية من النفوذ والاصابة، فالأخلاق والمزايا الأنسانية ما كانت لتنشأ وتشتد لو لم يكن التنازع على البقاء وحفظ النوع اقوى الحوافز الانسانية. واليك جميع الفضائل والأخلاق الانسانية، افحصها فحصا مدققا وجردها من النظرة السيولوجية فتجد انها جميعها تمت الى حفظ النوع وحفظ الذات بسبب شديد

واذا ما انتهى اخوان الصفا من تقرير هذا القانون على ذلك

(١) رسائل اخوان الصفا (٢) الرسائل

(١) الرسائل

النحو من الشمول والاجمال عادوا الى التفصيل فقالوا : « اما علة شهوة الجماع المركوزة في الجبلات فهي من أجل التناسل ، والتناسل من أجل بقاء الصورة في الاشخاص المتواترة ».

وهم — كعلماء النشوء — لا يبالون ان ينزلوا باحساس الجمال من منزله الرفيع ويحسبوه اداة تسخرها القدرة لحفظ النوع . فيقولون على لسان الحيوان معارضا ومناظراً الانسان : « واما الذي ذكرت ايها الانسي من حسن الصورة وافتخرت به علينا فليس فيه شيء من الدلالة على ما زعمت بانكم اوجب ونحن عبيد ، اذ كان حسن الصورة شيئا مرغوبا فيه عند ابناء الجنس الواحد من الذكور والاناث ليدعوهم ذلك الى الجماع والتناسل لبقاء النسل. وذكر أنا لا نرغب في محاسن أنانثكم ولا أنانثا في محاسن ذكرانكم ، كما لا يرغب السودان في محاسن البيضان ». ولا يفوتك في آخر هذه القطعة الطريفة اشارة الاخوان الى أن الجمال أمر نسبي يقدره الناس تقديراً متباينا . ونظرية نسبية الجمال نظرية مشهورة يقول بها كثيرون من الباحثين في فلسفة الجمال .

وكما يحسب الاخوان ان الغريزة الجنسية مسخرة لحفظ النوع كذلك هم يقررون أن الحواس مسخرة لحفظ الذات فيقولون : « قصد الله وغرضه في الحيوانات ليس عقوبة لها وعذابا بل حثاً لنفوسها على حفظ أجسادها وصيانة لها ، ولو لم يكن ذلك كذلك لتهاونت النفوس بالأجساد وخذلتها واسلمتها الى الهلاك . . . فلهذه العلة جعلت الآلام والأوجاع للحيوان لتمكنه من البقاء اما بالحرب أو بالهرب ».

وبعد ان يفرغ اخوان الصفاء من هذا القانون — قانون تنازع البقاء — وذكر وسائله وأدواته يعودون فيقولون : ان هذا التنازع لا يكون الفوز فيه الا للأصلح ، أما الضعيف فيجب ان يفنى امام القوى : « لأنه لما كان بعض الحيوانات أتم خلقة وأكمل صورة جعلت النفس الناقصة خادمة ومسخرة للتامة ، وجعلت أجسادها غذاء ومادة لأجساد الناطقة منها وسبباً لبقائها لتبلغ أتم غاياتها » . أما الغرض من ذلك كله ، فهو النفع الكلي والصلاح العام ، وان كان يحصل في ذلك اضرار جزئية . مثال ذلك ان الشمس تشرق وتغيب للمنفعة العامة ، ولكن قد يكون في ذلك ضرر يقع على اناس مخصوصين ».

الا ان اخوان الصفا لا يقفون عند هذا الحد ولا يكتفون بالقول بان قانون التنازع وحده اداة الرقي والنشوء أيضاً — بل هم كعلماء النشوء يحسبون ان التعاون لا يقل شأنا في مضمار التقدم والنشوء عن التنازع . فهم يقولون : ان ما جبل في طباع بعض الحيوانات من الالفة والانس والمودة هو ليدعوها الى الاجتماع والمعاونة لما فيه من صلاحها وكثرة منافعها .

هذه لمحة موجزة في آراء اخوان الصفا النشوئية . وهي على كل حال لا تمثل الا ناحية ضيقة من هذه الآراء التي يبثها اخوان الصفا في رسائلهم المعروفة . والذي لا يزال حرياً بالدرس من آرائهم هو شيء كثير . وانى لعلى رجاء بان تغري هذه الصفحات قارئها بالنظر في رسائل الاخوان . فانه — وأنا الكفيل — سيأخذ أجوره نقداً صحيحاً لا زيف فيه . لست أنكر ان فيها كثيراً من هذه الرسائل صحراوات لا فحة لا ظل فيها ولا ماء . ولكني — من جهة أخرى ، أستطيع ان أقول : ان الواحات تنتشر في هذه الصحاري انتشاراً كبيراً ، فلا يعدم القارئ في سيره وادياً هنا أو واحة هناك يستظل أفياءها ويتبرد بنسيمها ويهل من مائها فيستجمع قواه ويعاود السير كاقوى ما يكون . وبهذا يفيد فائدتين : فائدة انه يأخذ نفسه برياضة تعوده السير الطويل المتعب ، وأخرى انه يشهد آفاقا لا عهد له بها ولم تطأها قدماه من قبل فيما نعتقد .

ولعلنا ، اذا أفسحت لنا « الرسالة » الغراء صدرها ، عائدون الى اخوان الصفا ومفصلون لك آراءهم في كثير من المسائل كعلم النفس والتربية والاخلاق : فان لأخوان الصفا في هذه النواحي آراء هي في الغاية من الطرافة والاصابة .

شرق الأردن — أديب عباسي

مكتبة النهضة المصرية

١٥ شارع المدابغ امام جريدة الاهرام

تليفون نمرة ٥١٣٩٤

لصاحبها حسن محمد

أول مكتبة افرنجية يملكها مصري

تبيع بسعر الخارج

كتب الطب والجامعة المصرية والمدارس العليا والثانوية

ستنقل المكتبة قريبا جدا الى العمارة رقم ١٥ بشارع المدابغ أمام جريدة الاهرام ، وقد عمل تصميمها الجديد كأحدث أشكال المكاتب الاوربية ، وسيكون مكان العرض الجديد بها ضعف الاول .